وصيـــة والد لابـنه(*)

حدثنا أبو بكر رحمه الله قال : أخبرنا السكن بن سعيد ، عن محمد بن عبادة ، عن ابن الكلبي ، عن أبيه ، قال : لما حضرت عبدالله بن شداد بن الهاد الوفاة دعا ابنا له يقال له محمد ، فقال : يا بني ، إني أرى داعي الموت لا يقلع ، وأرى من مضى لا يرجع ، ومن بقي فإنه ينزع ، وإني موصيك بوصية فاحفظها: عليك بتقوى الله العظيم ، وليكن أولى الأمور بك شكر الله وحسن النية في السر والعلانية ، فإن الشكور يزداد ، والتقوى خير زاد ، وكن كما قال الحطيئة :

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد
وما لابد أن يأتي قريب ... ولكن الذي يمضي بعيد

صروف الدهر ونوائبه ، وتغير الحال

ثم قال أي بني ، لا تزهدن بمعروف ، فإن الدهر ذو صروف ، والأيام ذات نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوبا إليه ، وطالب أصبح مطلوبا ما لديه ، واعلم أن الزمان ذو ألوان ، ومن يصحب الزمان يرى الهوان، وكن أي بني كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعد من الرحمن فضلا ونعمة ... عليك إذا ما جاء للعرف طالب
وإن امرأ لا يرتجى الخير عنده ... يكن هينا ثقلا على من يصاحب
فلا تمنعن ذا حاجة جاء طالبا ... فإنك لا تدري متى أنت راغب
رأيت التوا هذا الزمانَ بأهله ... وبينهم فيه تكون النوائب

الجود ، وكتمان السر

ثم قال : أي بني ، كن جوادا بالمال في موضع الحق ، بخيلا بالأسرار عن جميع الخلق ، فإن أحمد جود المرء : الإنفاق في وجه البر ، وإن أحمد بخل الحر : الضن بمكتوم السر ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري:

أجود بمكنون التلاد وإنني ... بسرك عمن سالني لضنين
إذا جاوز الإثنين سر فإنه ... بنت وتكثير الحديث قمين
وعندي له يوما إذا ما ائتمنتني ... مكان بسوداء الفؤاد مكين

من شيم الكرام:

ثم قال : أي : بني ، وإن غلبت يوما على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإن الكريم يحتال ، والدني عيال ، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالا ، أقل ما تكون في الباطن مالا ، فإن الكريم من كرمت طبيعته ، وظهرت عند الإنفاد نعمته ، وكن كما قال ابن خذاق العبدي:

وجدت أبي قد أورثه أبوه ... خلالا قد تعد من المعالي
فأكرم ما تكون عليَّ نفسي ... إذا ما قل في الأزمات مالي

* كتاب الأمالي لأبي علي القالي ، ص٤٤٩، ف ١٤٥٣ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

فتحسن سيرتي وأصون عرضي ... ويجمل عند أهل الرأي حالي
وإن نلت الغنى لم أغلِ فيه ... ولم أخصص بجفوتي الموالي

أدب المحسود

ثم قال : أي : بني ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ، فإنك إن أمضيتها حيالها، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل ، هو الفطن المتغافل ، وكن كما قال حاتم الطائي:

ومال من شيمتي شتم ابن عمي ... وما أنا مخلف من يرتجيني
وكلمة حاسد في غير جرم ... سمعت فقلت مري فانفنيني
فعابوها على ولم تسؤني ... ولم يعرق لها يوما جبيني
وذو اللونين يلقاني طليقا ... وليس إذا تغيب يأتليني

قال أبوعلى : ما ألوت : ما قصرت ، وما ألوت : ما استطعت.

سمعت بعيبه فصفحت عنه ... محافظة على حسبي ودِيني

أسس المؤاخاة

قال أبوعلى ويروى : سمعت بغيبة . ثم قال : أي بني ، لا تواخ أمرا حتى تعاشره ، وتتفقد موارده ومصادره ، فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة ، فواخه على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة ، وكن كما قال المقنع الكندي:

أبل الرجال إذا أردت إخاءهم ... وتوسمن فعالهم وتفقد
فإذا ظفرت بذي اللبابة والتقى ... فيه اليدين قرير عين فاشدد
وإذا رأيت ولا محالة زلة ... فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

من أدب الحب والغضب

ثم قال : أي : بني ، إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط، فإنه قد كان يقال : أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوما ما، وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذري:

وكن معقلا للحلم واصفح عن الخنا ... فإنك راء ما حييت وسامع
وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا ... فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت بغضا مقاربا ... فإنك لا تدري متى أنت راجع

صحبة الأخيار ، وصدق الحديث

وعليك بصحبة الأخيار وصدق الحديث، وإياك وصحبة الأشرار فإنه عار ، وكن كما قال الشاعر:

اصحب الأخيار وارغب فيهم ... رب من صاحبته مثل الجرب
ودع الناس فلا تشتمهم ... وإذا شاتمت فاشتم ذا حسب
إن من شاتم وغدا كالذي ... يشتري الصفر بأعيان الذهب
واصدق الناس إذا حدثته ... ودع الناس فمن شاء كذب